حافظ ابراهيم

في الميزان

الصلة بين الفن والنفس

من القسوة الأدبية البالغة ، ومن الخطأ الفاضح فى معرض التحليل والنقد ، أن نقصر عملنا على الأثر الفنى للأديب أو الشاعر ، وأن نقطع أو نحاول قطع الصلة القائمة بين هذا الأثر وصاحبه ، ونحن نشعر فى نفوسنا بقوة هذه الصلة ، ونعرف مالها من نفوذ وسيطرة فى حياتنا الادبية التى نقول غير ملومين إنها واقعة باسرها تحت هذه السيطرة وذلك النفوذ .

نحن نقول إن الشعر فيض النفس ، ووحى الوجدان ، فعلينا اذاً أن نصم الى أدب الشاعر نفسه ووجدانه حين نريد أن نتعرف منزلته من الناحية الفنية ، وأن نضع له صورة صحيحة ، ومثالاً صادقاً .

للشاعر ككلّ فرد من الناس نفسه ووجدانه ، ومن الظلم أن ترى العاصفة تُلقى الحجارة على الينبوع المتدفق ثم تتهمه بالجمود إذا احتبس ماؤه ، أو ترميه بالحمق والسفاهة إذا تدافعت قواه فكان منتهى ما يستطيعه أن يقذف ببعض هذا الماء من خلال الحجارة فيتطاير رشاشاً أهوجَ لا يأخذ نظاماً ، ولا يستقيم فى مَسيل .

ذلك مَثَلُ الشاعر المقتدر تكتنف نفسَه أنواعُ الهموم وضروبُ الآلام فتعطل قواها المعنويّة ، أو تُلقى الحجب والاستار على أشعّتها فامّا أن تحتبس هذه الاشعّة احتباساً تامّاً فيكون السكوت ، وإمّا أن يندفع منها قَبَسٌ ضعيف يترقرق كالدمعة الحائرة فى منافذ ملتوية ، ويذهب أعمى يتعسّف ، فلا هو على هُدًى فى ذاته ، ولا الناس يهتدون به .

وإنك لتتجنّى وتذهب شططاً حين تنكر على المصباح أنه مختنق النور أو ضئيله ، وتأبى الا أن يكون كما تريد وتقترح إشراقاً وبهجة ، وأنت ترى زجاجته قائمة فى غشاء من سواد .

حافظ فى نفسه وفنه

حافظ ابراهيم شاعر كامل العدّة ، تامّ الاداة ، أخذ نفسه بأدب الفحول من مبرّزى الشعراء ، وراضها عليه ، فلحق بديوانهم ، وأخذ مكانه بين أعيانهم ، انه لكما أصفه لك ، ولكن لا تطمع أن يطربك وهو محزون ، ولا أن يرضيك وهو ساخط ، كلا ـ لا تطمع أن تتلقّى من فم حافظ تلك النغمات الشهية ، والتغاريد العذبه ، الا حين تصفو نفسه ، وينعم باله وخاطره ، هو شاعر كبير النفس ، طامح الهمّة ، يرى من حقه أن يتخطى الناس والمراتب ، ويمشى على مناكب الايام وأعناق الحوادث ، إلى أن يقع فى منزلته ، ويخلص الى مكانه .

تعبَ حافظٌ فى هذا السبيل ، وتعبت معه أطماعه النائرة ، فهو قد ظنّ أن له مكاناً فى ظلال العرش المصرى الذى اتجهت اليه آماله ، فهو يتحفز للوثوب ، فأخذ يضرب على قيثارته عسى أن يسمع صاحب العرش فيصغى اليه ، ويحب أن يراه ويصطنعه ، ولكنّ قيثارةً أخرى يحملها شاعر القصر كانت تشغل سمع الامير وقلبه ، فلم يجد حافظ منفذاً لنفسه ، وعَلِمَ أن لا مكان له ولا لغيره فى تلك الظلال ، واليك بعض ما توسل به الى هذا المطلب ، وأرافه من عصارة ذهنه فى ذلك السبيل .

قال حافظ ابراهيم من قصيدة فى عيد جلوس العباس عام ١٩٠١ :

ماذا ادّخرتَ لهذا العيد من أدبِ ؟ فقد عهدتك ربَّ السَّبقِ والغلبِ
هذا هو العيد قد لاحت مطالعه وكلنا بين مشتاقٍ ومرتقبِ
يا مَنْ تنافسُ فى أوصافه كلمى تنافُسَ العرب الامجاد فى النسبِ
لم يُبْقِ (أحمدُ) من قولٍ أحاولهُ فى مدح ذاتك ، فاعذرنى ولا تعبِ
مَشيئةُ الله فى العباس قد سَبقتْ الى الجدود ، ومن يأتى على العَقِبِ
يَا مَنْ تَوَهَّمَ أنَّ الشِّعر أعذبُهُ فى الذَّوْقِ أكْذبُهُ ، أزريتَ بالادبِ
عَذْبُ القريض قريضٌ بات يعصمه ذكر (ابن توفيق) وعن لغوٍ من كذبِ

ليس لنا أن نقول إن حافظاً أراد أن يخدع شوقى بتقريظه فى هذه القطعة لينتفع به أوليأمن كيده وهو يريد أن يخترق الطريق الى العرش ، فهو إنما جرى على طريقة ذوى النبل

والشرف من جمهرة الشعراء والادباء فى التنويه بفضل الاكفاء والمتقدمين من أعلام الفنّ ، وجهابذة الصناعة ، وتلك سجية أعرفها فى حافظ ، وأذكرها له من فضائله المأثورة ، ولك فيما يلى دليل واضح يرشدك إلى الحق ، ويدلك على الصواب .

قال من قصيدة أخرى فى عيد الجلوس :

يا ليلةً ألهمتنى ما أتيـــــه به ... على حُماة القوافى ، أينما ناهوا
انى أرى عجباً يدعو إلى عجبٍ ... الدهرُ أصغره ، والعيدُ أفشاه
هل ذاك ما وعد الرحمنُ صفوتَهُ ... روضٌ ، وحورٌ ، وولدانٌ ، وأمواه ؟
أم الحديقة ذاتُ الوشيِ قد جُليتْ ... فى منظرٍ يستعيد الطرفَ مرآه
أرى المصابيحَ فيها وهى مشرفةٌ ... كأنها النَّوْرُ والوسمىُّ حبّاهُ
أو إنما هى ألفاظٌ مدبّجة ... وكلُّ لفظٍ تجلّى فيه معناهُ
أرى عليها قلوبَ القومِ حائمةً ... كالطير لاح له وِرْدٌ فوافاهُ
أرى أريكةَ عبّاسٍ تحفُّ بها ... وقايةُ اللهِ ، والاقبالُ ، والجادُ
قل للألى جعلوا للشعر جائزةً ... فيم الخلافُ ؟ ألم يرشدكم اللهُ ؟
إنى فتحتُ لها صدراً تليق به ... إن لم تُحَلّوهُ ، فالرحمن حلاّهُ
لم أخش من أحدٍ فى الشعر يغلبنى ... إلاّ فـــتىً ما له فى السَّبقِ إلاهُ
ذاك الذى حكمتْ فينا يراعتُه ... وأكرم الله والعباسُ مَنواهُ

الدليل على سماحة النفس وكرم السجيّة أكثر وضوحاً فى هذه القطعة منه فى القطعة الأولى ، فحافظ يحكم لشوقى على نفسه ، وهو مجال المباراة ، ومعرض المسابقة ، وليس هذا مما يسهل على كل نفس ، وله من قصيدة أخرى فى عيد الفطر :

مطالع سعـــــدٍ ، أم مطالع أقمار ... تجلّت بهذا العيد ، أم تلك أشعارى ؟
إلى سُدّةِ العبّاسِ وجّهتُ مدحتى ... بتهنئةٍ شوقيةِ النسج معطـــــار

لك أن تقول بعد هذا ، إن حافظاً أحسّ أمراً غيّر رأيه فى شاعر القصر ، وجعله يتحلل مما تقيّد به ، ولك فوق هذا أن تضيف إلى همومه الكثيرة هماً جديداً ، أو أكثر من هم ، عداوة شاعر القصر ، ووعورةُ الطريق إلى العرش ،

وتضاؤل رجائه الذى كان يدفع به فى هذا السبيل ، وكلّ هذا مما تستفيده من قوله فى قصيدة أخرى :

طفْ بالاريكة ذات العزّ والشانِ ... واقضِ المناسكَ عن قاصٍ وعن دانِ
يا عيدُ ليتَ الذى أولاكَ نعمته ... بقرب (صاحب مصرٍ) كان أولانى
صُغتُ القريضَ ، فما غادرت لؤلؤة ... فى تاج كسرى ، ولا فى عقدِ بُوران
شكا عُمانُ ، وضجّ الغائصون به ... على اللآلى ، وضجّ الحاسدُ الشانى
كم رام شأوى ، فلم يدرك سوى صَدَفٍ ... ساحتُ فيه لنظّامٍ ووزّان
عابوا سكوتى ، ولولاه لما نطقوا ... ولا جرت خيلهم شوطاً بميدان
اليوم أنشدهم شعراً يعيد لهم ... عهدَ النواسىّ أو أيامَ حسّان
أزفّ فيه إلى العباس غانيةً ... عفيفة الخدر ، من آبات عدنان
من الأوانس ، جلاّها يراعُ فتىً ... صافى القريحة ، صاحٍ غيرُ نشوان
ما ضاق أصغره عن مدح سيّده ... ولا استعان بمدح الراح والبان
ولا استهلّ بذكر الغيد مدحته ... فى موطن بجلال الملك ريان

حملة شديدة ، وغارة شعواء على شاعر القصر ، ما كان لحافظ بعدها أن يطمع فى الاتصال بصاحب العرش ، وما له ولصاحب العرش ، وقد قذف بآماله من حالق ، وردّ عليه كلّ عروس من شعره فى زىّ طالق ، بعد أن زفّها اليه تحمل كل ما جمع تاج كسرى وعقد بوران من لآلىء غالية ، وبعد ان شكاه بحر عمان وغوّاصه لطول ما ارتكض فى نواحيه ، وتقلّب فى جوانبه ، ينضيد الدرر يهديها الى العباس فى شعره ويرصع بها تاجه ، فيزيد فى جلاله ويضاعف سنا ملكه ، واشراق عصره ؟

إنها لصدمة عنيفة لنفس حافظ ، ولأدبه وفنّه ، ولكن لا بد للنفس الكبيرة من أن تطلب حقها ، وتلتمس مكانها ، ولابدّ للادب وفنّ الادب من نهضة بعد نهضة ، وانبعاثة بعد أخرى .

فوق عرش الامارة بمصر ، عرش الخلافة العظمى فى فروق ، ووراء هذا المجال الضيق الذى عثرت فيه آمال حافظ وهوت صريعة ، مجال أوسع يجدر به ان يتخذه لأدبه وفنّه . ولنفسه ومطامعه . وهكذا انصرف حافظ الى هذا المجال ، وأقبل على

أمير المؤمنين ، السلطان عبد الحميد ، يتغنّى بمدحه ، ويذكر له وللخلفاء من آل عثمان فضلهم العظيم فى اقامة ذلك البناء الاسلامى الضخم الذى رفعوه على شفار سيوفهم ، وتعهدوه بدماء أبطالهم ورجال دولتهم .

قال شاعرنا الكبير من قصيدة فى عيد تأسيس الدولة العلية :

مقد مكّن الرحمن فى الارض دولةً لعثمان ، لا تعفو ولا تتشعّبُ
بناها ، فظنّتها الدرارى منازلاً لبدر الدجى تُبنى ، وللسّعد تُنصَبُ
وقام رجالٌ بالامامة بعده فزادوا على ذاك البناء وطنّبوا
وردّوا على الاسلام عَهدَ شبابهِ ومدّوا له جاهاً يُهاب ويُرهبُ
أسودٌ على البسفور تحمى عرينها وترعى نيامَ الشّرقِ، والغربُ يرقبُ

وقال من قصيدة أخرى فى عيد الجلوس السلطانى :

لمحت جلال العيد والقومُ هُيَّبُ فعلّمنى آى العلى كيف تُكتبُ
تجلّى على عرش الجلال ، وتَاجُهُ يَهَشُّ ، وأعوادُ السّرير ترحّبُ
وكم حاولوا فى الارض إطفاء نورهِ واطفاءُ نور الشّمس من ذاك أقربُ

ومنها فى وصف الجيش العثمانى :

يدانى شُخوصَ الموت حتى كأنما له بين أظفار المنية مطلبُ
اذا ثار فى يوم الوغى ، مال منكبٌ من الارض والاطواد ، وانهال منكبُ
له من رءوس الشّمّ فى البرّ مركبٌ ومن ثائر الامواج فى البحر مركبُ

لم ينل حافظ منالاً من جانب الخلافة ، فضاع شعره فيها كما ضاع من قبل فى الامارة ، وقيل فى بعض الانباء إن اليد التى أبعدته عن هذه لم تدعه ينعم بامله الجديد ، فسدّت عليه السبيل بعد ان عمل بعض الاصدقاء والانصار لتمهيده ، وبعد أن أوشك الشاعر العاثر الجدّ أن يظفر بحاجته ، ويقع على أمنيّة .

اشتدت الحركة الوطنية فى مصر على يد الزعيم الوطنى الاول (مصطفى كامل) أوصار الشعر من عناصرها ، فغامر حافظ فيها يتودد الى الشعب ويناصر زعماءه ، وفى روعه انه مُفْضٍ من هذا الطريق الى ما يبتغيه من نباهة ذكر وسعة حال ، فنظم القصائد الحماسية الملتهبة ، وجال فى ميدان الجهاد الوطنى جولات واسعة

النطاق مترامية المدى ، وقد نجح من الناحية الأدبية نجاحاً كبيراً فى هـذا المسلك الذى لم يكن من المستطاع لشاعر القصر أن يزاحمه فيه ، أو يصرفه عنه ، ولم يقصر حافظ شعره فى هذا الدور على السياسة وحدها ، ولـكنه تبسّط فى أدبه فتناول الاخلاق والعادات ، وشؤون الحياة العامة وأحداثها فى الامة ، فلقّبوه بشاعر النيل وبالشاعر « الاجتماعى » .

وهذه أمثلة مما نظمه فى هذه الوجوه والمناحى تحدّثك أنّه لم يُعَدّ لصغائر الامور ، وأنّه مسوق بفطرته وشعوره الى مواطن الجدّ فى القول ، ومنازل العز والشرف فى الادب ، فهو بهذا الوصـف شاعر الامّة والبـلاد ، وشاعر الزمن والخلود .

لستُ فى هذا بمتّهم ، وما أدّعى انه استطاع أن يعصم نفسه وأدبه عمّا لا ينبغى لمثله من زلة الرأى ، ونهافت المنطق ، فانّ له لقصيدتين من الشعر الشارد ، احداهما فى رثاء الملـكة فيكتوريا ، والثانية فى تتويج ادوارد السـابع وقد احترز فى الاولى ولم يتحفظ فى الثانية ، فقال :

لا تعجبنّ لملكٍ عزّ جانبه ... لولا التعاونُ لم تنظر له أثرا
ما نَلْ ربْـكَ عرشاً بات يحرسه ... عدلٌ ، ولا مَدّ فى سلطان مَنْ غدرا
(ادوار) دمتَ ، ودام الملك فى رغدٍ ... وَدَامَ جُنْدُكَ فى الآفاقِ منتصرا
هم يذكرونكَ إنْ عَدّوا عُدُولَـهُمُ ... ونحن نذكر إنْ عُدّوا لنا (عُمَرا)
كأنّمـا أنتَ تجرى فى طريقتـهِ ... عدلاً ، وحلماً ، وإيقاعاً بمن أشِرَا

وان له لقصيدتين أخريين فى وداع (كرومر) أخطأ فيهما القصـد ، والتوى به السبيل فى أولاهما التواءً يسوء كل محبّ له ، ومطلع هذه القصيـدة :

فتى الشعر ، هذا موطنُ الصدق والهدى ... فلا تـكذبِ التاريخ ، إن كنت منشد

ومنها :

سنطرى أياديكَ التى قد أفضتها ... علينا ، فلسنا أمةً تجحد اليدا
أمنّا ، فلم يسلك بنا الخوفُ مسلـكاً ... ونمنا ، فلم يطرق لنا الذُعرُ مرقدا
وكنتَ رحيمَ القلبِ ، تحمى ضعيفنا ... وتدفع عنا حادثَ الدهرِ إنْ عدا

قال شاعرنا الـكريم بعد هـذا :

ولولا أسىً فى دنشوايَ ، ولوعةٌ وفاجعةٌ أدمتْ قلوباً واكبدا
وَرَمْيُكَ شعباً بالتعصب غافلاً وتصويرُكَ الشرقيَّ غِرّاً مُجرَّدا
لَذُبْنا أسىً يومَ الوداع لِأننا نرى فيكَ ذاكَ المصلحَ المتودّدا
اللهمّ فاغفر لحافظ ، انها ليست من رأيه ، ولا من عقيدته .

أمثلة من شعره فى السياسة وشؤون الحياة

قال من قصيدته (ماذا أصبت من الاسفار والنصب) :

متى أرى النيلَ لا تحلو مواردُه لغير مُرتهبٍ لله ، مُرتقبِ ؟
فقد غدت مصرُ فى حالٍ اذا ذكرت جادت جفونى لها باللؤلؤ الرطبِ
كأننى عند ذكرى ما ألمَّ بها قِرْمٌ تردّدَ بين الموت والهربِ
اذا نطقتُ فقاعُ السجنِ مُتّكئى وان سكتُّ ، فانَّ النفسَ لم تطبِ
أيشتكى الفقرَ غادينا ورائحنا ونحن نمشى على أرضٍ من الذهبِ ؟
والقومُ فى مصر كالإسفنج ، قد ظفرت بالماء ، لم يتركوا ضرعاً لمحتلبِ
يا آل عثمانَ ، ما هذا الجفاءُ لنا ونحن فى الله اخوانٌ وفى الكتبِ ؟
تركتمونا لأقوامٍ نُخالفنا فى الدين والفضل والاخلاق والادبِ

آية بارعة من إنجيل الشعر السياسى أرسلها الشاعر الكبير تحت سماء مصر ، باسم مصر ، وفى سبيل مصر ، يشكو فيها تألب الحوادث عليها ، وتشاغل الاعوان والانصار عنها ، وهو حين يذكر السجن ويتخوّف أن يُقذف به الى قاعه إن هو كشف عن ذات نفسه كلّ الكشف ، وقال كل ما يريد أن يقول ، انما يصف لك خطبَ الحرية ومُصابها ، وشقاءَ النفس الشاعرة وعذابها ، وهذه صورة أخرى من صُور الحياة السياسية التى تصدّى لوصفها ، وعمد الى تصويرها . ومن شعره فى هذا الباب قوله من قصيدة :

سَعيتُ الى أن كدتُ أنتعلُ الدَّما وَعُدْتُ وما أُعقِبْتُ الاّ التَّندُّما
لحَا اللهُ عَهدَ القاسطين الذى به تهدَّمَ من بنياننا ما تهدَّما
إذا شئتَ أن تلقى السّعادة بينهم فلا تكُ مصرياً ، ولا تكُ مُسلما

وقوله فى حادثة دنشواى من قصيدة طويلة :

أيها القائمون بالامر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا ؟
انما نحن والحمامُ سواءٌ لم تغادر أطواقنا الاجيادا
أحسنوا القتلَ إن ضننتم بعفوٍ أنفوساً أصبتمُ ، أم جمادا ؟
ليت شعرى أتلك محكمةُ التفـ تيش عادت أم عهد نيرون عادا ؟!

وقوله من قصيدة أخرى فى هذه الحادثة وجّه الخطاب فيها الى ممثل الدولة الانكليزية فى مصر لدى عودته إليها :

ماذا أقول ، وأنتَ أصدقُ ناقلٍ عنّا ، ولكنّ السياسة تكذبُ ؟
إن ضاق صدرُ النيل عما هالهُ يَوْمَ الحمامِ ، فانّ صدركَ أرحبُ
رفقاً (عميدَ الدولتين) بأمةٍ ضاق الرجاءُ بها ، وضاق المذهبُ
إن أرهقوا صيّادكم ، فلعلهم لِلْقُوتِ ، لا للمسلمين ، تعصّبوا
ولربما ضنّ الفقيرُ بقوتهِ وسخا بمهجتهِ على من يغضبُ
فى (دنشواى) وانت عنّا غائبٌ لعب (القضاءُ) بنا ، وعزّ المهربُ
نُكبوا ، وأقفرت المنازلُ بعدهم لو كُنْتَ حاضرَ أمرهم ، لم يُنكبوا

لا تظنن حافظاً يرسل هذا البيت وهو غافل عما ترى أنت فيه معنى التنزيه للممثل الانكليزى ، والارتفاع به عن مواطن الظلم ، ومواضع الجور والعسف ، إنه ليعلم أن كلّ ما حدث فى دنشواى من كبار الحوادث وعظائم الامور ، إنما كان بمشيئة الممثل ورأيه ، وانما هو يغالط ويتهكم ، ونحن بسبيل الشعر السياسى ، وقد مضى حكم شاعرنا الكبير على السياسة فى قوله (ولكنّ السياسة تكذب . .) . قال بعد هذا :

جُلدوا ، ولو منّيتهم لتعلقوا بحبال من شُنِقوا ، ولم يتهيّبوا
شُنقوا ، ولو مُنحوا الخيارَ لأهّلوا بِلَظَى سياطِ الجالدينَ ، ورحّبوا
فاجعلْ شعارَكَ رحمةً ومودةً انّ القلوب مع المودّة تُكسَبُ

أنظر إلى هذا البيت ، ألا ترى فيه مصداق ما قلته لك عن غرض الشاعر ووجهته

إذ يقول (لو كنت حاضر أمرهم لم ينكبوا) ؟ إنّه ينصح للممثّل الانكليزى أن يكون رحيماً ، ويوصيه أن يتودد الى هذه الأمة بكفّ الاذى ، وأخذها بسياسة أخرى غير سياسة العصا ، قال الشاعر يخاطبه :

وإذا سُئلتَ عن الكنانة ، قل لهم هىَ أمّةٌ تلهو ، وشعبٌ يَلعبُ

وله من قصيدة يخاطب (روزفلت) حين قدم إلى مصر وألقى فيها خطبته السياسيّة المأثورة :

يا خطيبَ (الدنيا الجديدة) شنِّفْ سمعَ مصر بقولك المأثور
واخبر النّاسَ كيف سُدْتمْ عَلىَ النّا س ، وجئتم بمعجزات الدهور
وملكتم أعنةَ الريح والما ء ودستم على رقاب العصور
قفْ وعدِّدْ مآثر العلم ، واذكر نعمَ الله ذكر عبدٍ شكور
وإذا ما ذكرتَ أنعمه الكُبـ ـرَى فلا تنسَ نعمة الدستور
يا نصيرَ الضعيفِ ما لك تُطرى خُطَّةَ القوم بعد ذاك النكير ؟
لم تُطيقوا جوارهم ، بل أقمتم فى حماكم من دونهم ألفَ سُور
ليت شعرى أكنت تدعو اليهم يوم كانوا على تخوم الثُّغور ؟
يوم كانوا قذًى بعين (نُيُويُورْ . . . كَ) وداءً مُستحكماً فى الصُّدور
يوم نادى (واشنجتون) فلبّا هُ من الغيل كلُّ ليثٍ هصور
ووثبتم إلى الحياةِ وُثوباً ونفضتم عنكم تراب القبور
يا نصير الضّعيف حَبِّبْ اليهم هجرَ مصرٍ تَفُزْ بأجرٍ كبير

لانريد ان نستأثر بشعر حافظ فيما نكتب عنه ، فانّ لاصدقائه الكرام وصحابته الموفين من كتاب هذا العدد المخصص له حقّاً كبيراً فيه وفى شعره ، وحسبنا من شعره السياسىّ ما أثبتناه له ، فهو يُمثّله لك شاعراً محباً لبلاده ، حفيّاً بأمّته ، يشكو ، فلا ترتاب فى انّ مصر هى الشاكية ، ويرجو فلا تأخذك شبهة فى موضع هذا الرجاء من نفسها ، ومحلّه من فؤادها . ان فى كلّ بيت من هذا المثال المقتضب لجُرْحاً دامياً من جراح مصر السياسيّة ، وصرخةً عاليةً من صرخاتها العنيفة المتوالية ، وانك لترى بين هذين شيئاً آخر يندفع فى روعة شديدة ، ويثور فى

حرارة بالغة ، ذلك هو الأمل ، أمل مصر المعذبة ، أملها الحائر المضطرب تارة ، والحزين تارة أخرى . ومن شعر حافظ فى شؤون الحياة المصرية قوله من قصيدة يدعم بها رأى (قاسم أمين) فى الحجاب :

رجائىَ فى قومى ضعيفٌ كأنّه ... جَنانُ وزيرٍ ، سوّدته مَنَاصِبُهْ
أقاسمُ إنّ القوم ماتت قلوبُهم ... ولم يفهموا فى السِّفْرِ ما أنتَ كاتِبُهْ

وقوله من قصيدة فى حريق ميت غمر :

أيها الرافلون فى حُلل الوشـ ... ـى يجرون للذيولِ افتخارا
انّ فوق العراء قوماً جياعاً ... يَتَوَارَوْنَ ذلّةً وانكسارا
قد شهدنا بالامس فى مصر عُرساً ... ملأ العين والفؤادَ انبهارا
سَال فيه النّضارُ حتى حسبنا ... أنّ ذاكَ الفِناء يجرى نُضارا
بات فيه المنعّمونَ بلَيْلٍ ... أخجلَ الصُّبْحَ حُسْنُهُ فتوارى
يكتسون السّرورَ طوراً ، وطوراً ... فى يد الكأس يخلعون الوقارا
وسمعنا فى (ميت غمر) صياحاً ... ملأ البرَّ ضجةً والبحارا
جلَّ من قسَّمَ الحظوظ فهذا ... يَتَمَغَّنىَّ ، وذاكَ يَبكى الديارا !

فى القصيدة التى نجتزىء عنها بهذه القطعة البليغة وصف مؤلم للمنكوبين يبعث الرحمة فى أشد القلوب قسوة ، ويُغرى بالاحسان والبرّ أكثر النفوس تمرُّداً على فضيلة المعروف وشريعة الخير ، ولم يكن حافظ فى هذا كله وصّافاً أو مصوّراً فحسب ، كلا ، فانّا نرى نفسه الكريمة وروحه البارة ، ممثلين فى هذه القصيدة المؤثّرة تمثيلاً ناطقاً ، ولقد عرفته رحمه الله ليّنَ القلب ، قوىَّ العاطفة يقف على السائل بين يديه ، فيقع عطاؤه فى كفّه قبل أن تقع كلمته من بين شفتيه . ثم لا يقنع بهذا ، ولكنه يبقى واجماً محزوناً من أجله فلا يكاد يعود الى الحديث الا إذا حمل عليه . وهذه قطعة من قصيدة له ألقاها فى مدرسة البنات فى بور سعيد :

كم ذا يكابد عاشقٌ ويلاقى ... فى حُبِّ مصرَ كثيرةِ العشاقِ
لهفى عليكِ متى أراكِ طليقةً ... يحمى كريمَ حماكِ شعبٌ راقِ !

فاذا رُزقتَ خليقةً محمودةً فقد اصطفاكَ مُقسِّمُ الارزاقِ
والعلمُ إن لم تكتنفه شمائلٌ تُعليه كان مطيَّةَ الاخفاقِ
كم عالمٍ قدَّ العلومَ حبائلاً لوقيعةٍ وقطيعةٍ وفراقِ

يذكر فقيه السوء بعد هذا البيت ثم يقول فيه :

يمشي وقد نُصِبَتْ عليه عمامةٌ كالبرج لكن فوقَ تلٍّ نفاقِ

ثم يستطرد فيقول :

وطبيب قومٍ قد أحلَّ لطبِّه ما لا تُحِلُّ شريعةُ الخلاّقِ

وهو اذا وفَّى هذا الطبيب حقّه من الوصف كرَّ على (مهندس النيل) فأغرقه ذمّاً وتقريعاً ، ثمّ انقضّ على الاديب ـ أديب السوق ـ فأهانه وداس أدبه وبيانه وهذا بعض ما قال فيه :

فى كفِّهِ قلمٌ يُمجُّ لُعابُهُ سُمّاً وينفثه على الاوراقِ
يَرِدُ الحقائقَ وهىَ بيضٌ نُصَّعٌ قُدْسيَّةٌ ، عُلويَّةُ الاشراقِ
فيَرُدّها سُوداً ، على جَنَباتِها من ظُلمةِ التمويهِ ، ألفُ نطاقِ
عَرِيَتْ عن الخُلُقِ المطهَّرِ نفسُهُ خياتُهُ ثِقَلٌ على الأعناقِ

يلتفت الشاعر بعد هذا كله الى جهل الامّهات فى مصر ، وسائر بلاد الشرق العربى ، والى ما له من الآثار الذميمة فى حياة الأمم الشرقية فيقول :

مَنْ لى بتربيةِ النساء ، فانّها فى الشرق علةُ ذلك الاخفاقِ
الأمُّ مدرسةٌ ، إذا أعددتَها أعْدَدْتَ شعباً طيِّبَ الاعراقِ

سار هذا البيت مسيرَ المثل ، وهو من الحكم العمرانية الجليلة ، وقد ذهب الشاعرُ فى هذه القصيدة مذهب المتحفظ بين أنصار الحجاب ، ودعاة السُّفور ، فقال :

أنا لا أقول دعوا النساءَ سوافراً بين الرجالِ ، يَجُلْنَ فى الاسواقِ
يَدْرُجْنَ حيثُ أرَدْنَ ، لا مِنْ وَازعٍ يحْذَرْنَ رقْبَتَهُ ولا مِن واقِ
كلا ، ولا أدعوكمو أن تُسرفوا فى الحَجْبِ ، والتضييقِ ، والارهاقِ

فتوسَّطوا فى الحالتين ، وأنصفوا فالشَّرّ فى التقييدِ والاطلاقِ
رَبّوا البنات على الفضيلة ، إنَّها فى المَوْقِفَيْنِ لَهُنَّ خَيرُ وثاقِ

بهذه الابيات الحكيمة ، فَصَلَ الشاعرُ العظيمُ حافظ ابراهيم فى مشكلة (الحجاب والسُّفور) على السَّنَنِ الأوضح ، والطريقة المثلى . فمن حقّ هذا الحكم أن يكون دستوراً لجيلنا الحاضر وللأجيال المقبلة معاً فى هذه القضية التى تشغل الشُّعوبَ الشرقية اليوم .

قال شاعرنا العظيم من قصيدة فى (رعاية الاطفال) :

لو وفى بالزَّكاةِ مَنْ جَمَعَ الـ . . . دُّنيا وأهْوَى على اقتناءِ الحطامِ
مَا شَكا الجوعَ مُعدمٌ ، أو تَصَدَّى لِرُكوبِ الشرورِ والآثامِ
راكباً رأسه طريداً شريداً لا يبالى بشرعةٍ أو ذمامِ
سائلاً عن وصيةِ اللهِ فيهِ آخذاً قُوتَهُ بحدِّ الحسامِ

أنظر اليه كيف تناول الحياة العامّة من أساسها ، وكيف برز فى هذه القطعة من شعره زعيماً اشتراكياً كبيراً ، يجمع الفقراء حول لوائه ، ويزحف بهم فى شجاعة وجرأة على قصور الأغنياء ، يدعوهم إلى كتاب الله ويحاول أن يقتحم الاسوار إلى خزائنهم يستنقذ منها تلك الحقوق الصارخة المحبوسة عن ذويها وأوليائها .

أنظر اليه إماماً صالحاً ومعلماً حكيماً يصف لك ما ينشأ عن تعطيل حكم الزكاة من سخط الفقراء على الاغنياء ونشوب العداوة بين الفريقين ، وأن ذلك ممّا يثير الشرور ويدفع الى اقتراف الجرائم .

قال شاعرنا من قصيدة رنّانة ألقاها فى احتفال الجامعة مطلعها (حيّاكمُ الله أحيوا العلم والأدبا) :

هذا هو الأثرُ الباقى فلا تقفوا عند الكلام اذا حاولتموا أدبا
ودونكم مثلاً أو شئتُ أضربُهُ فيكم وفى مصر إن صدقاً وإن كذبا
سمعتُ أن امرأً قد كان يألفُهُ كلبٌ فعاشا على الاصلاح واصطحبا
فرَّ يوماً به والجوعُ ينهبُهُ نهباً فلم يبق إلا الجلد والعصبا

يبكى عليه وفى يُمناه أرغفة ... لو قامها جائعٌ من فرسخ وثبا
فقال قومٌ وقد رَقّوا لذى ألمٍ ... يبكى وذى ألمٍ يستقبل العطبا :
ماخطبُ ذا الكلب؟ قال: الجوعُ يخطفه ... منى وينشب فيه الناب مُغتصبا
قالوا وقد أبصروا الرُّغفانَ زاهيةً : ... هذا الدواء فهل عالجته فأبى ؟!
أجابهم ، ودواعى الشُّحِّ قد ضَربتْ ... بين الصديقين من فرط القِلى حُجبا :
لذلك الحدِّ لم تبلغ مودَّتُنا ... أما كفى أن يرانى اليومَ مُنتحبا ؟!
هذى دموعى على الخدّين جارية ... حُزناً ، وهذا فؤادى يرتمى لهبا

يسوق حافظ الى قومه هذه القصة اللذيذة التى تصف الجنان الكاذب ، وتمثل الحبّ الغادر ، ليأخذ السبيل على الذين يدّعون حبّ مصر من أبنائها ، ويكثرون من ترديد الاقاويل الزائفة فى هذا المعنى ، حتى اذا حانت ساعة العمل تركوا البلاد فى عمرتها ، ووقفوا يتباكون خلف أنصارها ، أراد شاعرنا الموقر أن يأخذ السبيل على هؤلاء ليساهموا بأموالهم فى اقامة أكبر دار للعلم والثقافة العصرية فى مصر ، وانظر ماذا يقول بعد اداء قصته .

أقسمتُ باللهِ إن كانت مودَّتُنا ... كصاحبِ الكلبِ ، ساءَ الامرُ مُنقلبا
أعيذكم أن تكونوا مثله ، فترى ... منكم بكاءً ، ولا نُلفى لكم دأبا
إن تقرضوا الله فى أوطانكم ، فلكم ... أجرُ المجاهدِ ، طُوبى الذى اكتتبا

فى هذه الطائفة من منظومات حافظ فى هذا الباب ما يُغنى عن الاسترسال ، ويفى بالمطلب المبتغى ، وقد ترامت بشاعرنا الكبير همته الادبية ، فتباعد مداه ، وتقاذفت غايته ، ومن الاغراض التى تناولها ونظم فيها ، وهو يسير مُمعناً ، ويذهب متدفقاً فى تلك المطارح البعيدة والمنازع القصية : الشمس — غادة اليابان — حرب اليابان — المارتينك — فيكتور هوجو — زلزال ايطاليا — أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — تولستوى — وقد أجاد حافظ فى كلّ هذه الابواب اجادة كبيرة ، تدلّ على عبقريته وعلوّ منزلته . فمن قوله فى مناجاة تولستوى بعد موته :

حياةُ الورى حربٌ وأنت تريدها ... سلاماً ، وأسبابُ الكفاح كثيرُ
أبت سُنّةُ العمرانِ الاّ تناحراً ... وكدحاً ولو انّ البقاء يسيرُ

تحاولُ دَفْعَ الشرِّ والشرُّ واقعٌ وتطلبُ محضَ الخيرِ وهو عسيرُ
ولولا امتزاجُ الشرِّ بالخير لم يقم دليلٌ على أن الالـهَ قديرُ
ولم يبعث اللهُ النبيين للهدى ولم يَتطلَّع للسَّرير أميرُ
ولم يعشقِ العلياءَ حُرٌّ، ولم يَسُدْ كريمٌ ، ولم يَرْجُ الثراءَ فقيرُ
فكم فى طريق الشرِّ خيرٌ ونعمةٌ وكم فى طريقِ الطيِّباتِ شرورُ

موقف تأمل

هذا هو حافظ ابراهيم ، فهل ترى وراء كل هذا مزيداً لشاعر مصرى يعيش فى مصر ؟ إن فى مصر لحياةً زاهرة ولكن لغير الاديب المهذب ، ودنيا ناضرة ولكن ليست للشاعر الحرّ ، وهل تظن أن حافظاً يهزل حيث يقول :

فما أنت يامصرُ دارَ الأديبِ ولا أنتِ بالبلدِ الطيِّبِ

أتراه متجنياً عليها أو ظالماً لها أو عدوّاً يضمر لها البغض ويريد بها السُّوء ، وهو الذى أداب نفسه الكريمة شعراً فى سبيل حُبها ومن أجل حياتها ؟ أليس هو الذى يقول :

لهفى عليكِ متى أراكِ طليقةً يحمى كريمَ حِماكِ شعبٌ راقِ ؟

أتريد ان تعرف لمَ يقول حافظ بعدهذا وغيرهذا (فما أنت يامصر دارَ الأديب...)؟ هو وحده يحدثك ، وهذا جوابه :

عقنى الدهرُ ولولا أننى أُوثِرُ الحسنى عققتُ الادبا
أنا لولا أنّ لى من أمّتى خاذلاً ، ما بتّ أشكو النُّوَبا

ما أراك بحاجةٍ إلى المزيد بعد هذا ، ولكنّى أزودك قبل الفراغ من هذا الموقف لتظلّ ذاكراً . قال حافظ من قصيدة :

سلامٌ على الدنيا سَلامَ مُوَدِّعٍ رأى فى ظلام القبر أُنساً ومغنما
فما عصمتنى من زمانى فضائلى ولكن رأيتُ الموتَ للحُرِّ أعصما

أخذ حافظ بنصيب من رتب الدولة ، وأقيمت له حفلة تكريم كبرى ، ثمّ

استُعْمِلَ فى دار الكتب وكلّ هذا عطاء نَزْرٌ ونائلٌ مُصَرَّدٌ ، وليس من هذا شىء يُرضى النفس الجيدة والعقل الكبير ، فرحمة الله عليك أيها الصديق .

نظرة فى شعره

أسلفنا لك أن حافظاً شاعرٌ خلّ متمكن الشاعرية قليل الأنداد ، وقصصنا عليك من أمره ما فيه عظة لك بالغة ، فكن صبوراً فى أمرك والناس المعذرة له اذا رأيته يهفو تارة أو يتبرم بالشعر فيتعسف فيه تارة أخرى . وانك لتراه على هذه الحال فى القصيدة الواحدة من شعره . تراه الشاعر العبقرى المنيع فى موضع منها والشاعر المتهاون المستهدف للنقد فى موضع آخر . أنظر الى قوله :

ما ذا ادّخرتَ لهذا العيدِ من أدبِ ؟ وقد عهدتكَ ربَّ السَّبقِ والغلبِ

البيت بارع يجرى على نسق جميل نلمس فيه قوّة الدافع الوجدانى ونسمع له جرساً بعيد الأثر طويل الرنين . وانك لتراه مصقولا ناعماً كثير الايماض مُستطير البريق . ولكن أترى لو أنّ حافظاً أمعن النظر فى هذا البيت أكان يغفل عما فيه من التخاذل ؟ انه ليعلم أن قوله (ادّخرت) يفسد عليه غرضه وينأى به عن المنزلة التى أرادها لنفسه ، وهل يفتقر الشاعر الفيّاض الى الادخار وهو الذى يسبق الاقران ويغلبهم ؟

أعجب من هذا البيت قوله فى البيت الثانى من القصيدة :

تشدو وترهفُ بالاشعار مُرْتجلاً وتُبرزُ القولَ بين السِّحرِ والعجبِ!

فهو فى البيت الاول شاعر مدّخر لا يأخذ موقفه الا اذا استعدّ ، وهو فى البيت الثانى حاضر البديهة متدفّق الطبع ، يقول الشعر ارتجالا ويا بعد ما بين الصورتين . أما قوله (ترهف بالاشعار) فخطأ لغوىّ ، يقال أرهف الرجلُ السيفَ ورهفه اذا شحذه ورقّق حدّه ، ومراد الشاعر أن يقول إنه يشدو بالاشعار ويرقّق صوته فى انشادها فالخطأ ظاهر ، وقال :

وتَصقلُ اللّفظَ فى عينى ، فأحسبنى أرى فِرِنْدَ سُيُوفِ الهندِ فى الكتبِ

أنت ترى البيت من الشعر الرنّان وإنك لمأخوذ بجمال هذا التشبيه الذى يُريك رونقَ السيف وشَعاعَهُ فى المتْنِ فهو المُتَسَنَّم من الكلام ، ولكنك فى غير

حاجة الى الاذن إذا قلت إن جملة (تصقل اللفظ فى عينى) ظاهرة الخلل والفساد لأن مرجع الصُّوَر اللفظية الى الذهن — أو هو الذوق الفنى — لا الى العين . فما كان لها من مختلف الآثار فثمَّ الموضع وهنالك الحكم ، شأنها فى ذلك شأن الصور المعنوية ولا خلاف ، والعين والكتب فى البيت — أو فى هذا الباب كله — يستويان حُكماً لأن رونق الكلام واشراقه لا يكونان فى الورق ، وأولى بهذا الوصف أن يكون فى حسن الخط وجمال الرسم لا يعدوهما ، ومن عبث المتنبي فى هذا الباب قوله :

وَمَا قُلتُ من شعرٍ تَكَادُ بُيُوتُهُ إذَا كُتِبَتْ يَبْيَضُّ من نورها الحِبرُ

وأشدُّ من هذا فى معرض العبث أن يقول :

وما أنا وَخَدِى قُلْتُ ذا الشِّعرَ كُلَّهُ ولكنَّ لشعرى فيكَ من نفسهِ شعرُ

قال شاعرٌ قديمٌ فى حسن الخط :

يا مَنْ اذا خَطَّ الكتابَ يَمِينُهُ أهدى الينا الوشيَ من صنعاء

والشطر الثانى لابى تمام وأصله(أهدى اليها) . وقال التنوخى فى هذا الباب:

وَكَأنَّهُ لَيْلٌ يَمُو جُ خِلالَهُ صُبْحٌ مُنِيرْ

وبدائعٌ تَدعُ القلو بَ تكاد من طربٍ تطيرْ

ومنه قول كشاجم :

وكأنَّ البياضَ والنُّقطَ السُّو دَ عبيرٌ رَشَشْتَهُ فى مُلاَءه

وكأنَّ السُّطُورَ وَالذَّهَبَ السَّا طِعَ فيها كواكبٌ فى سماء

وأين شاعرنا من المعانى يصفها ويقول لنا ما هى ؟ أتراه اكتفى من وصفها بقوله فى البيت السابق « وتُبرزُ القولَ بين السِّحر والعجب » ؟ كلاَّ ! انما هذا من الوصف الفنّى فى شىء ، وإليك بعض ماقيل فى وصف الكلام . قال أبو تمام فى الحسن بن وهب :

تنشقُّ فى ظلم المعانى إن دجتْ منهُ تباشيرُ الكلامِ المشرقِ

وقال البحترى :

وبديعٌ كأنّهُ الزّهرُ الضـا حِكُ فى رونقِ الربيعِ الجديدِ
مُشرق فى جوانبِ السّمع ما يُخْـ لِقُهُ عَوْدُهُ على المسْتَعيدِ

أمّا المتنبى فيقول :

اذا ما صافحَ الاسماعَ يوماً تبسّمت الضمائرُ والقلوبُ

لا أزيدك على هذا فحسبك أن تعرف المذهب وترى تصرّف القوم فيه وأحسب لو أن البحترى قال « مشرق فى جوانب النفس » لكان أجود وأنّ البَوْنَ لكبيرٌ بين « سمع البحترى » و « عين حافظ » .

قال حافظ فى هذه القصيدة :

انى دعوت القوافى حين أشرقَ لى عيدُ الأميرِ فَلَبَّتْ غُرَّةَ الطَّلَبِ

غُرّة كلّ شىء أوّله ، يريد أن القوافى لبّته مُسرعة وهو مأخوذ من قول ابن الرومى :

يا مَنْ تَنَافَسُ فى أوصافه كلمى تَنَافُسَ العرَبِ الامجادِ فى النَّسبِ

وهو مأخوذ من قول أبى تمام :

تغايَرَ الشعرُ فيه إذْ سهرتُ له حتّى ظننتُ قوافيهِ ستقتتل

وفى بيت أبى تمام من التهويل الشعرى ما ترى . وقال فى قصيدته (ياليلةً ألهمتنى ما أتيهُ به) :

انى أرى عَجباً يدعو الى عجبِ الدهرُ أضمرَهُ والعيدُ أفشاهُ

يقول هذا البيت فى وصف المشاهد التى رآها ليلة المهرجان فانظر كم بينه وبين قول ابن الرومى فى تهنئة بعيد النيروز :

لم يَبْقَ للارض من سرّ تكاتمهُ الا وقد أظهرته بعد إخفاء ؟

قال حافظ يصف حديقة الازبكية فى قصيدته هذه :

أمِ الحديقةُ ذاتُ الوشىِ قد جُلِيَتْ فى مَنْظَرٍ يستعيدُ الطَّرْفَ مَرآهُ ؟

المنظر والمرأى واحد ، وقد أراد شاعرنا أن يقول ان الحديقة برزت فى منظر أنيق يُعرى العين بادمان النظر فوضع (مرآه) موضع (رؤيته) فاخطأ وقال :

أرى المصابيحَ فيها وهى مُشرفةٌ كأنها النَّوْرُ والوسمىُّ حَيَّاهُ

تشبيه معكوس لأن المصابيح أشد إشراقاً من الزهر ، ولعلّ الصورة التشبيهية هنا قائمة فى اختلاف ألوان المصابيح ومحاكاتها لالوان الازهار ، وهو ما لا يستفاد من هذا البيت أو سواه من أبيات القصيدة ، واليك ما يقوله أبو الحسن التهامى لتعرف مأخذ التشبيه :

وإذا تأملت الكواكب خِلْتَها زهراً تَفَتَّحَ ، أو عُيُوناً حُوَّلا

وانظر ما يقول ابن النبيه :

والليلُ نجرى الدرارى فى مجَرَّتِهِ كالروض تطفو على نهر (أزاهرُه)

وأزاهرُه فى البيت خطأ ، فالصواب ، زهر وأزهار وأزاهير — قال حافظ بعد البيت المتقدم فى صفة المصابيح :

أو إنما هى ألفاظٌ مُدَبَّجةٌ وكلُّ لفظٍ تَجَلَّى فيهِ مَعْنَاهُ

شبّه شاعرنا المصابيحَ فى البيت السابق بالازهار ، ثم عاد فشبهها فى هذا البيت بالالفاظ المدبجة ومعانيها فلم يتجاوز ما قدمناه لك من بيان وايضاح ، فانت ترى الانتحال ظاهراً فى البيتين بل نحس زيدك فنذكر لك قول المتنبى :

كأن المعانى فى فصاحة لفظها نُجومُ الثريّا أو خلائقكَ الزُّهْرُ

قال حافظ :

أرى (سُمُوَّ خديوينا) وقد بُسِطَتْ بالعدلِ والبذلِ يُمناه ويسراهُ

رحم الله شاعرنا الفحل انى لأظنه ردد كثيراً فى (سمو خديوينا) هذه فلما أبت أن تفارقه وطّنَ لها نفسه وأدخلها بيته كارهاً ثم ذهب يردد قول جرير :

انّ البغيض له منازل عندنا ليست كمنزلة المُحبِّ المُكْرَمُ

وبعد ، فبيت حافظ صورة من قول البحترى :

ولِىَ البلادَ فكان عدلاً شائعاً ينفى الظلامَ ونائلاً موهوبا

وللقوم مذهب معروف فى هذا الباب يقع فيه قول الحطيئة :

يداك خليج البحر ، احداهما دمٌ يَفيضُ ، وفى الأخرى عطاءٌ ونائلُ

وقول مسلم بن الوليد :

وما مرّ يومٌ قطّ الا جرتْ به على الناس من كفّيك بُؤسى وأنعُمُ

وقوله :

غاد على كسبِ المحامد رائحٌ في راحتيه منيّةٌ وثُبورُ

وقول ابن هانىء الاندلسى :

وللدهر سِجْلٌ من حياقٍ ومن رَدًى ولكنّه من بين كفّيكَ ينهى

قال حافظ :

أرى أريكةَ عبّاسٍ تحُفّ بها وقايةُ اللهِ والاقبالُ والجاهُ

يقال حَفّهُ وحَفّ حَوْلَهُ وحَفّهُ بالشّيء فقوله (تحفّ بها) خطأ لا يسوغ. وفى القرآن الكريم (حافّين من حول العرش وحففناهما بنخل) وقال البحترى :

يَحُفّونَ مَرْجُوّاً كأنّ سُيُوفَهُ سُيُوحُ الحِراقِ غُرّهاوُ نُورها

ويقول جرير :-

وبَنُو الوليدِ من الوليدِ بمنزلٍ كالبدرِ حُفّ بواضحاتِ الأنجُمِ

ومن قول الاخطل فى الخمر :

لها رِدَاآنِ، نَسْجُ العنكبوتِ وقد حُفّتْ بآخرَ من ملثٍ ومن قارِ

وقد وقع ابن هانىء الاندلسى فيما وقع فيه حافظ من الخطأ . فقال فى القائد جوهر :

يَحُفّ بهِ القُوّادُ والأمرُ أمرُهُ ويَقْدُمُهُ رَأْيُ الخلافةِ أهيَمِ

ومما نُسب الى عنترة وهو بعيد :

حَفَفْتُ بِهِنّ مَناصِلٌ وذوابِلٌ ومَشَتْ بِهِنّ زوامِلٌ ونواجِ

ولعلّ هذا وأمثاله منشأ الخطأ فى قول حافظ - قال فى (جائزة الشعر) :

إنّى فتحتُ لها صدراً تليقُ بهِ إن لم تحلّوهُ فالرحمنُ حلاّهُ

كانت الجائزة الاولى فى هذه المسابقة نوطاً ذهبياً وهى التى عناها حافظ وقد حُكم بها لقصيدته هذه . يقول إنه فتح لها صدره وفتح الصدر هنا لامعنى له فهى لاتوضع داخل الصدر ولا تُعلّق على ظاهره. فيحمل الشاعر مايليه من الازرار

ويميط ماعليه من النياب ، وهو لوفعل ذلك لبقى صدره مُقفلاً فالتعبير اذاً عامّى محض مانشكّ فى أن شاعرنا الكبير تَرَخَّصَ فيه لِيُداعِبَ المحكَّمين ويشغلهم بقصيدته .

قال فى عيد تأسيس الدولة العلية يذكر خلفاء آل عثمان :

وقام رجالٌ بالامامة بعده فزادوا على ذاك البناء وطنَّبُوا

وقال جرير :

ان الوليدَ خليفةٌ لخليفةٍ رَفَعَ البناءَ على البناءِ الاعظمِ

قال شاعرنا من قصيدة أخرى يصف شجاعة الجيش العثمانى وشدة مخاطرته :

يُدانى شُخُوصَ الموتِ حتىّ كأنما لهُ بين أظفارِ المنيّةِ مَطلبُ

الوصف فى المنزلة العليا من البراعة ، ولكنه ليس بالجديد ، فهو قد تقلب فى صُوَرٍ شتىّ من الشعر القديم ، وما نريدُ لك إلا أن تتفقهَ فى الأدب ، فاليك طائفةً من هذه الصُّوَر ، قال أبو تمام :

مُستَرْسلينَ إلى الحتوفِ ، كأنما بين الحتوفِ وبينهم أرحامُ

وقال المتنبي :

وَقَفْتَ ومافى الموتِ شَكٌّ لواقفٍ كأنك فى جفنِ الردى ، وهو نائمُ

وقال ابن هانىء :

ولقد تكون لكَ الاسنَّةُ مَضجعاً حَتَّى كأنَّكَ عن حِمامكِ غافلُ

وهذا ابن معتوق يقول :

وَخُضْتُ إليها الحتفَ حَتَّى كأنَّنى أُفَتِّشُ أَحْشَاءَ المنيَّةِ عن سِرّ

قال حافظ :

مَلكتَ عليهم كُلَّ فَجٍّ وَلُجَّةٍ فليس لهم فى البرِّ والبحر مهربُ

ويقول ابن هانىء :

أين المفرّ وَلاَ مَفرَّ لهاربٍ وَلكَ البَسيطانِ : الثرى والماء

قال حافظ :

تَقاذَفَهُمْ أيدى اللَّيالى كأنّهم بها مَثَلٌ للنّاس فى القولِ يُضربُ

وقال أبو تمام :

أبْقَى عَلَى جَوْلةِ الأيّامِ من كَنَفَىْ رِضْوَى وأسْيُرُ فى الآفاقِ من مَثَلِ

وقد أبرز المتنبّى هذا المعنى فى صورة أخرى فقال :

يُخَيَّلُ لى أنّ البلادَ مَسامِعٌ وأنّىَ فيها ماتقول العواذلُ

ومن قول أبى تمام فى موضع آخر :

كأنّ لهُ دَيْناً على كلِّ مَشْرِقٍ من الارض أو ثاراً لدى كلِّ مَغربِ

قال حافظ من قصيدته (ماذا أصبت من الأسفار والتعب ؟) :

انّى احتسبتُ شباباً بِتُّ أُنْفقهُ وعزمةً شابت الدنيا ولم تَشِبِ

ويقول البحترى :

صَحِبُوا الزمانَ الفَرْطَ إلاّ انّهُ هرِمَ الزّمانُ وعِزُّهُمْ لم يَهرَمِ

ويقول ابو تمام (شابت نواصى اللّيالى وهى لم تَشِبِ) . وقال حافظ من هذه القصيدة :

مَتَى أرى النِّيلَ لا تحلو مَوارِدُهُ لغيرِ مُرتهبٍ للهِ مُرتقبِ ؟

ويقول أبو تمام فى المعتصم .

تدبيرُ مُعتصمٍ بالله مُنتقمٍ للهِ مُرتقبٍ فى اللهِ مُرتهبِ

قال حافظ :

وكم لبستُ الدّجى والتربُ ناعِسةٌ واللّيلُ أهدأُ من جاشى لدى النُّوَبِ

التُّرْبُ اسمٌ من التراب زعم حافظ أنّه جَمْعٌ فأنّثه خطأً ولُبْسُ الدُّجى أو اللّيل ممّا كثر تداوله على ألسنة الشعراء . قال حاتم الطائى :

وَليلٍ بَهيمٍ قد تسربلتُ هَوْلَهُ إذا اللّيلُ بالنِّكْسِ الضّعيفِ تجَهّما

وقال العتّابى :

سَحبتُ له ذيل السُّرَى وهو لابسٌ دُجَى اللّيلِ حتّى محّ ضوءُ الكواكبِ

اذا ادّرَعَ اللّيلَ الجلى وكأنّه بَقيّةُ هندىٍّ حُسامِ المضاربِ

ويقول ابن الرومى :

لبستُ دُجاهُ الجُونَ ثمَّ هتكتُها بوَجْناءَ يَنْمِيها غَريرٌ وشَدْقَمُ

ومن شعر البديع الهمذانى (عَلَىَّ أن ألبسَ الظَّلماءَ واليَلَبا) و يقول غيره (ويلبسُ من ظلمائها ثوْبَ ثاكل) فامّا قول شاعرنا (والليل اهدأ من جاشى لدى النوب) فمأخوذ من قول ابى طالب الرقى :

ولقد ذكرتك والظلامُ كأنه يومُ النَّوى وفؤادُ من لم يَعشقِ

قال حافظ من قصيدته (طُفْ بالاريكة) :

شَكا عُمان وضجَّ الغائصون بهِ على اللآلى وَضَجَّ الجاسِدُ الثَّانى
كم رام شأوي فلم يدرك سوى صَدفٍ سَاحتُ فيه لنظَّام وَوَزَّانِ

ومُحصِّل البيتين فى قول السرىّ الموصلى :

والشِّعرُ بحرٌ حُزْتُ أنفسَ دُرِّهِ وتَنافَسَ الشُعَراءُ فى حَصْبائه

وقال من قصيدته فى تتويج الملك ادوارد :

يُصَرِّفُ الأمرَ من مصر إلى عَدَنٍ فالهند فالكابِ حتى يَعْبُرَ الجُزُرَا

ويقول المتنبي فى كافور :

يُدَبِّرُ الملكَ من مصرٍ إلى عَدَنٍ إلى العراقِ فأرضِ الرُّومِ فالنُّوبِ

وقال :

سَعيتُ الى أن كدتُ انتعلُ الدِّما وَعُدْتُ وما أعقبتُ الاَّ التَّندُّما

وقال ازهر بن هلال التميمى يصف جواده :

أعاتك ما ولَّيتُ حتى تبددت رجالى وحتى لم أجد مُتقدِّما
وحتى رأيت الوَرْد يدمى لبَانَتهُ وقد هاجَهُ الابطالُ (فانتعل الدما)

وقال ابن هانىء فى خيل المعزّ :

له المقرباتُ الجُرْدُ (يُنعلها دماً) إذا قَرعتْ هامَ الكُماةِ السنابكُ

ومعنى البيت كله مأخوذٌ من قول الشاعر :

وما زلتُ أقطعُ عرض البلاد من المشرقين إلى المغربينْ
وأدَّرِعُ الخوف تحت الدُّجى وأستصحبُ النَّسرَ والفرقدينْ
وأطوى وأنشرُ ثوبَ الهمُوم إلى أن رجعتُ بِخُفَّيْ حُنينْ

وقال :

نُكبوا وأقفرت المنازلُ بعدهم لو كُنت حاضر أمرهم لم يُنكبوا

وهو من قول المهلهل فى كليب :

وتكلموا فى شأن كُلِّ عظيمة لو كنتَ شاهد أمرهم لم ينبسوا

قال فى قصيدة (روزفلت) :

واخبر الناسَ كيف سُدتم على النا س وجئتم بمعجزاتِ الدهورِ

اخبرَ من الافعال الرباعية وحكمه حين يكون فعل امر ثبات حركة الهمز فى اوله فيقال (اخْبِرْ) ، وعندنا ألاّ رُخصة فى قواعد اللغة فلا يشفع فى مثل هذا الخطأ البيّن ان يكون البيت مُستقيم الوزن . قال حافظ بعد هذا البيت :

وملكتم أعنَّة الريحِ وَالما ء وَدُسْتُمْ على رقابِ العصورِ

يقال داسَ الرجلَ والشيءَ لادَاسَ عليه فالفعل مُتعدٍّ بنفسهِ والخطأ فى البيت واضح ، وقوله (الدهور) فى البيت الاول و (العصور) فى الذى يليه من أشنع عيوب القافية . ومن قوله فى هذه القصيدة :

قف وعدّد مآثر العلمِ واذكر نِعمَ اللهِ ذكر عبدٍ شكور

فى مادَّة عدَّدَ شبهات لغويّة لم تفصل المعاجم فى امرها وقد اختُلف فى تفسير قوله تعالى (الَّذِى جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ) فقالوا جعله عُدَّةً للدَّهر وقالوا غير ذلك واليك طائفه من اقوالهم .

قال الخازن : وَعَدَّدَهُ أى أحصاه من العَدد ، وقيل هو من العُدّة ، استعدّه وجعله ذخيرةً وغنىً له .

وقال البيضاوى : جعله عُدة للنوازل ، أو عَدَّهُ مرةً بعد أخرى ، ويؤيده أنّه قُرِئَ وَعَدَدَهُ على فك الادغام .

وقال الألوسى : عَدَّهُ مَرَّةً بعد أخرى حُبّاً له ، وشغفاً به وقيل جعله

أصنافاً وأنواعاً ، وقال غير واحد ، أى جعله عُدّة ومُدّخراً لنوائب الدهر ومصائبه ، وَقُرِىءَ وعَدَدَه أى قومه الذين ينصرونه .

وقال الطبرى : عَدَّدَهُ أحصى عَدَّهُ .

وقال الفخر الرازى : فيه وجوه ، أحدها أنه مأخوذ من العُدَّة ، وهى الذخيرة ، وثانيها عَدَّدَهُ أى أحصاه ، وجاء التشديد لكثرة المعدود كما يقال (فلان يُعَدِّدُ فضائل فلان) وثالثها عَدَّدَهُ أى كثّرَهُ ، وقرأ بعضهم وَعَدَدَهُ بالتخفيف .

أمّا الزمخشرى شيخ اللغويين فيقول : عَدَّدَهُ جعله عُدَّةً لحوادث الدهر ، وَقُرِىءَ وَعَدَدَهُ بالتخفيف من قولك له عَدَدٌ وَعَدَدٌ ، وقيل وَعَدَهُ بمعنى وعدَّهُ على فك الادغام ، نحو ضَنِنُوا .

هذه أقوال المفسرين ، أمّا معاجم اللغة فتقول : عَدَّدَ المال تعديداً جعله عُدَّةً للدهر ، قال الاخفش : ومنه قوله تعالى (جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ) ويقال جعله ذا عَدد ، وَعَدَّدَ الميِّتَ عَدَّ مَناقبه .

يعوزنا بعد كل هذا أن نستشهد بالشعر من أقوال الثقات ، ولا يحضرنا الآن من الشواهد سوى قول أبى تمام :

وقائع أصلُ النَّصر فيها وَفَرْعُهُ إذا عُدِّدَ الاحْسانُ أو لم يُعَدَّدِ

وقول الشريف الرضى فى تهنئة أخيه الشريف المرتضى بمولودة .

للهِ شمسُ عُلاً جاءَت بجوهرةٍ غرّاءَ من قمرٍ بالمجدِ مَسعودِ
ما عَدَّدَتْ منك إلا نطفةً سلكتْ إلى الأمانى طريقَ الماءِ فى العُودِ

يدل سياق الكلام فى بيت أبى تمام على أنه يريد الاحصاء ، أمّا الشريف الرضى فيذهب الى معنى آخر ، والمعوّل فى كل هذا على العرب ، فالشبهة ما تزال قائمة ونحن نتجاوز بيت حافظ الى قوله :

ليت شعرى أكنتَ تدعو اليهم يومَ كانوا على تخُوم الثغور ؟

اختلف علماء اللُّغة فى كلمة (تخُوم) فقال بن السِّكّيت إنه سمع أبا عمرو يقول المفرد تَخُوم بالفتح ا والجمع تُخُم كَصَبُورٍ وصُبُرٍ .

وقال الفرّاء ، انما هى تُخُوم ، وَاحِدُها تَخْمٌ وتُخْمٌ ، وقد أخذ حافظ بهذا

القول كما أخذ به أبو تمام من قبل فقال :

أحلَّهُمُ النَّدَى سِطَةَ المعالى إذا نزَلَ البخيلُ على التُّخُومِ

قال حافظ من قصيدته فى كتاب قاسم أمين :

رجائى فى قومى ضعيفٌ كأنه جَنَانُ وزيرٍ سَوَّدَتْهُ مَنَاصِبُهْ

يجرى الشاعر فى هذا البيت على نسق الظاهر الحرمى إذ يقول :

وليلٍ كوجه البرقعيدىِّ ظُلمةً وبَرْدٍ أغانيهِ ، وطُولِ قرونهِ
قطعتُ دياجيهِ بنومٍ مُشرَّدٍ كعقل سُليمانَ بن فهدٍ ودينهِ
بذى أوْلَقٍ فيه التفاتٌ كأنّهُ أبو جابرٍ فى خَبطهِ وَجُنونهِ
الى أن بدا وجهُ الصباحِ كأنّهُ سَنا وَجهِ قرواشٍ وضوءُ جَبينهِ

وقال فى حريق ميت عمر :

جلَّ من قَسَّمَ الحظوظَ فهذا يَتغنَّى ، وذاكَ يَبكى الديارا

وهو ينظر إلى قول الشاعر :

سبحانَ من قَسَمَ الحظو ظَ فلا عتابَ ، ولا مَلامَهْ

قال حافظ من قصيدة أنفذها من السودان إلى الاستاذ الشيخ محمد عبده :

فناديتُ باسم الشَّيخِ والقيظُ جَرَّهُ يُذيبُ دماغَ الضَّبِّ والعقلُ ذاهلُ
فصرتُ كأنى بين روضٍ ومَنهلٍ تدبُّ الصَّبا فيه وتشدو البلابلُ

وهو صُورة محرّفة من قول الشاعر :

وليلٍ وصلنا بين قُطربهِ بالسُّرَى وقد جَدَّ شوقٌ مُطمعٌ فى وصالكِ
أربّت علينا من دجاهُ حنادسٌ أعدنَ الطريقَ النَّهجَ وعرَ المسالكِ
فناديتُ يا أسماءُ باسمكِ فانجلتْ وأسفرَ منها كُلُّ أسودَ حالكِ

وفى هذه القصيدة يقول شاعرنا :

فقلتُ إذا شاءَ الامامُ فأوبتى قريبٌ ، وربعى بالسَّعادة آهلُ
وإلاّ فانى قافلٌ رؤبةَ لم أزل بقيدِ النّوى حتى تغولَ الغوائلُ

البيت الأول من قول الشاعر :

عليكِ سلامٌ لا زيادةَ بيننا ولا وَصلَ الاّ أن يشاءَ ابنُ مَعمر

والثانى من قول المعرى :

ما لى غدوتُ كقافِ رؤبةَ قُيِّدَتْ فى الدهرِ لم يُقدرْ له إجراؤها ؟

وقد نبّه شارحُ الجزء الاول من ديوانه على المأخذ الثانى ولكن هذا التنبيه لا يشفع له ، ورؤبة هذا هو رؤبة بن العجاج التّميمى من أكبر الرجّازين وأقدرهم ، وقافه قاف أرجوزته التى يقول فى مطلعها :

وقاتمِ الاعماقِ خاوى المخترَقْ مُشتبهِ الاعلام لمّاعِ الخفقْ

وقال من قصيدة أخرى يمدح بها الاستاذ :

طلعتَ لها باليُمنِ من خير مطلعِ فكُنتَ لها فى الفوز قِدْحَ بنِ مُقبلَ

الضمير فى (لها) عائد على الأمّة ، وكان الوجه أن يقول (طلعت عليها) ومن الشواهد على ذلك قولهم (طلع البدر علينا) و (طلعتُ عليها بالردى أنا والفجرُ)

طلعوا على مروانَ يومَ لقائهِ من كلِّ أزْوَعَ بالقَنا دَعّاس

وفى قدح بن مقبل يقول الصفىّ الحلّى :

ومازلتُ فيهم مثلَ قِدْحِ بنِ مُقبلِ بِسَبْعِينَ أمسى فائزاً غيرَ خائبِ

وقال حافظ :

رأيتكَ والأبصارُ حولكَ خُشَّعٌ فقلتُ أبو حَفص بُردَيكَ أم على ؟

وقال البحترى :

بأزْوَعَ مِنْ طَىٍّ كأنّ قَمِيصَهُ يُزَرُّ عَلَى الشّيخين زَيْدٍ وحاتمِ

وقال غيره :

وقد يَتَغَابى المرءُ عن عُظمِ شأنهِ ومِن تحتِ بُرْدَيْهِ المغيرةُ أو عمرو

وقال فيه من قصيدة أخرى :

كأنّ فؤادى إبرةٌ قد تَمَغْطَسَتْ بحبكَ ، أنّى حُوِّلتْ عنكَ تعطفُ

نتخطى قوله (تمغطست) إذ لا رأىَ لنا فيها بعد أن تواضع كُتّابُنا على هذا النحو من الرطانة ، وحسبنا أن نذكر لك شيأً مما قيل فى هذا المعنى . قال الصفىّ الحلّى :

انّما هذه القلوبُ حديدٌ ولذيذُ الالفاظِ مَعْناطِيسُ

وقال آخر :

وَقَفَ الهوى بى حَيثُ أنت فليس لى مُتَأخَّرٌ عنهُ ولا مُتَقَدَّمُ

وقال حافظ :

لهُ كُلَّ يومٍ فى رِضَى اللهِ مَوقِفٌ وفى ساحَةِ الاحسانِ والبرِّ مَوقفُ

وفى الموقف الاول ما يغنى عن هذه الزيادة ، وقال :

كأنَّ يراعى فى مدبجكَ ساجدٌ مَدامِعُهُ من خَشيةِ اللهِ تذرفُ

وقال بعض المتقدمين فى القلم :

وذى خُضُوعٍ راكعٍ ساجدٍ وَدَمْعُهُ من جَفنهِ جارِ
مُواظبِ الخَمْسِ لأوقاتِها مُنْقَطِعٍ فى خدمةِ البارى

وقريبٌ من هذا قول ابن المعتز :

خاشِعٌ فى يَدَيْهِ يَلْثِمُ قِرْطا ساً ، كما قَبَّلَ البَياطَ شَكُورُ

وقول محمود بن احمد الاصبهانى :

أخْرَسُ يُنْبيكَ إطْراقُهُ عن كلِّ ما شِئْتَ من الامرِ
يَدْرِى عَلَى قِرْطاسِهِ دمعةً يُبْدِى بها السِّرَّ ، وما يدرى
كعاشقٍ أخفى هواه ، وقد نَمَّتْ عليهِ عَبْرَةٌ تجرى

وقال حافظ فى الاستاذ من قصيدة أخرى :

قالوا صدقتَ ، فكان الصدقَ ما قالوا ما كلُّ مُنتسبٍ للقولِ قَوَّالُ

وقال صفى الدين :

وَمَا كُلُّ مَنْ هَزَّ الحسامَ بضاربٍ ولا كُلُّ مَنْ أجرى اليراعَ بكاتبِ

وقال فيه :

لى كُلَّ حولٍ لبيتِ الجاهِ مُنْتَجَعٌ كما تُشَدُّ لبيتِ اللهِ أرحالُ

المنتجع المكان يُقصد ، والشىءُ يُطلب ، وبيتُ الجاه فى قول حافظ هو المكان ، فالخلل فى البيت ملموس ، وجمعُ رحلٍ على أرحال خطأ ، والصواب رِحَال وأرْحُل.

قال يصف مِدْحَته :

تَفتَّحَ الحمدُ عنها ، حين أسعدها منك القبولُ ، وفيها نَوَّرَ القالُ

وقال المتنبّي :

قطَفَ الرجالُ القولَ وَقْتَ نَبَاتِهِ وقطفتَ أنتَ القولَ لمَّا نَوَّرَا

قال حافظ فى الشيخ من قصيدة أخرى :

ما أجزل اللهُ ذُخرى قبل رُؤيتهِ ولا انتفعتُ بإيمانٍ وتوحيدِ

وقال ابن هانى فى المعزّ :

لولاكَ لم يكنِ التفكُّرُ واعظاً والعقلُ رُشداً ، والقياسُ دليلا
لو لم تكن سَبَبَ النَّجاةِ لأهلها لم يُغنِ إيمانُ العبادِ فتيلا

قال شاعرنا فى رثاء الشيخ :

لقد كُنْتُ أخشى عادىَ الموتِ قبلهُ فأصبحتُ أخشى أن تطولَ حياتى

وقال النابغة الذبيانى :

فانْ تَمْحَ لا أَمْلِلْ حَياتى وإنْ تَمُتْ فما فى حَياتى بعد موتكَ طائلُ

وقال البحترى فى غلامه نسيم :

أعْظَمُ الرُّزْءِ أنْ تُقدَّمَ قَبْلى وَمِنَ الغَبْنِ أنْ تُؤَخَّرَ بعدى

ولصفى الدين الحلى فى المعنى :

ما بقائى مِن بعدِ فقدِكَ الاّ كبقاءِ الرياضِ بعد السَّحابِ

قال حافظ يتغزل من قصيدة فى الشاعر العظيم محمود سامى البارودى :

تَيَمَّمْتُهَا والليلُ فى غير زيّه وحاسدها فى الأفق يُغرى بىَ العِدَى

لا نريد الاستقصاء فى النقد وسرد المآخذ ، ولسنا بمتجاوزين قول المتنبي :

أزورهم ، وَسوادُ الليل يَشفع لى وأنثنى ، وَبَياضُ الصُّبح يُغرِى بى

قال :

وقال كبيرُ القوم لد ساء فالُنا فانا نرى حتفاً بحتفٍ تَقَلَّدَا

فليس لنا الاّ اتقاء سبيله وإلاّ أعَلّ السَّيفَ مِنّا وأوْرَدَا

يقال تَقَلَّد السَّيفَ لا تَقلد به ، والمعنى أنه كان متقلداً سيفاً وانه كان كالسَّيف فى مضائه وحدّته ، وهو مأخوذ من قول الشاعر :

مَتى تَهْزُرُ بنى قَطَنٍ تجِدْهُمْ سُيُوفاً ، فى عَوَاتِقِهِمْ سُيُوفُ

وقوله أعَلّ وأورد فى البيت الثانى متنافر ، والسَّبيل أن يقال أعلّ وأنهل . قال الشاعر :

تَحُومُ وتغشاها العِصِىُّ ، وحولها أفاطِيعُ أنعامٍ تُعَلُّ وَتُنْهَلُ

وقال البحترى :

يا دَارُ لا زَالَتْ رُبَاكِ مَجُودَةً مِنْ كُلِّ غادِيَةٍ تُعَلُّ وَتُنْهَلُ

قال ، يعنى (فتاة الخدر) :

وترجو رجاءَ اللصّ ، لو أسْبلَ الدُّجى على البدر سِتراً حالكَ اللَّون أسودَا

ولو أنّهم قَدُّوا غدائر شَعْرِها لحاكُوا لهُ منها نقاباً إذا بدَا

قوله (وترجو رجاء اللص) من التعابير السابية فى مثل هذا المقام ، وقوله (غدائر شعرها) من التراكيب الفاسدة ، وهل كانت الغدائر شيئاً آخر غير الشعر ؟ والمعنى فى البيتين مطروق . ومنه قول ابن هانى فى البيت الثانى :

يَعِزُّ على الحسناء أن أطأ القَنَا وأعْثُرَ فى ذيلِ الخميس العرمرمِ

تَوَدُّ لو انّ اللّيلَ لُفَّ بشعرها لِيَسْتُرَ أوضاحَ الجوادِ المسوَّمِ

قال :

اذا ذَكروا منه النَّسيبَ رأيتنا ودَاعِى الهوى منّا أقامَ وأقعدَا

وإن ذَكروا منه الحماسَ حَسِبْتَنَا نَرى الصَّارمَ المخضوبَ خَدّاً مُوَرَّدَا

يصف حافظ شعر البارودى فى هذين البيتين ، وفى البيت الاول من سوء التركيب ما لا يخفى على الناقد البصير ، فأنت ترى إن كلمة (منّا) وما وراءها صُورة ناطقة من صور العجز عن أداء المعنى واصابة الغرض على وجه مقبول ، ونسق سائغ ، وقوله (أقام وأقعد) من الكلمات التى أفرط الشعراء فى استعمالها وتجافوا بها عن مواطن الرفق ، ومواضع الاناة ، وانى لمقتصدٌ لك فى ايراد الشواهد . قال بعضهم :

(وأقام قلبي في الغرام وأقعدا) .

وقال الشريف الرضي في البرق :

كلما أنجد عُلْوِيَّ السَّنا قام بالقلب اشتياقٌ وقعدْ

وقال :

وانّ قوامَ الدين قد عَبَّ بَحْرُهُ وعيداً أقامَ الخالعين ، وأقعدا

وقال المتنبي :

أبدَى العُداةُ بكَ السُّرورَ كأنهم فَرِحُوا ، وعندهُمُ المقيمُ المُقعدُ

أما قوله (الحماس) في البيت الثاني خطأ نحوي ، والصواب الحماسة ، ومعنى البيتين يتمثل في قول السري الموصلي :

جَدٌّ يطيرُ شِرارُهُ وفُكاهةٌ تستعطفُ الأحبابَ للأحبابِ

وفي عجز البيت معنىً مُقتبَسٌ من قول عنترة :

فَوددتُ تقبيلَ السُّيُوفِ لأنّها لمعت كبارقِ ثغركِ المتبسّمِ

يقول حافظ إن الحماسة في شعر البارودي تدفع بالمرء إلى غمرات القتال فاذا به من شدة الشوق اليها ، وفرط الشغف بها ، يري السيف المخضّب بالدم في صورة الخدّ المورّد اشراقاً وحسناً — يقول حافظ هذا . فما ذا ترى أنت ؟ ألا ترى الرجل مُقبلاً على السّيف يُقبّله ؟ هذا ما أراده الشاعر ، وهو معنى قول عنترة :

كم وقفةٍ لكَ ، والأبطالُ طائرةٌ والحربُ تضربُ صنديداً بصنديدِ

تقولُ للنفس ، إن جاشت اليكَ بها : هذا مجالُكِ سُودي فيه أو بِيدِي !

في البيت الاول صورة من قول مسلم بن الوليد :

يَلتَقي المنيّةَ في أمثال عُدَّتِها كالسَّيلِ يَقذفُ جُلموداً بجلمودِ

أمّا البيت الثاني فيقع فيه كثير من الصُّوَرِ ، وإنّا لذا كرون لك شيئاً منها . قال الشاعر يعني نفسه :

وقولي كلما جشأتْ وجاشتْ مَكانَكِ تُحمدي أو تستريحي

وقال غيره : (لنا الصدرُ دون العالمين أو القبرُ)

وقال المتنبّى :

عِشْ عزيزاً أو مُتْ وأنت كريمٌ بين طعن القنا وخفق البنود

وقال ابن هانىء : (فامّا حياةٌ أو حِمامٌ مواشكُ)

وقال أبو تمام :

فأثبتَ فى مُسْتَنْقَعِ الموتِ رجله وقال : لها من تحت أخمُصكِ الحشرُ !

قال حافظ فى رثاء عثمان بك السيد أباظه :

يا ساقِيَىَّ أرانى قد سَكِنتُ إلى ماء المدامعِ عن ماء العناقيدِ

وقال مسلم بن الوليد :

لا أجمعُ الحلمَ والصَّهباءَ قد سَكِنتْ نفسى إلى الماء عن ماء العناقيدِ

وقد ختم شاعرنا الكبير قصيدته بقوله :

وعظَّم اللهُ فى عثمان أجرَكمو فى رحمة اللهِ أمسى خيرَ مفقودِ

وهو ظاهر العيوب ، فلا طائل فى نقده ، وما أشبه الشطر الثانى من البيت بهذيان المؤرخين من اخواننا الشعراء .

وقال فى وصف السفينة التى رجع عليها الاستاذ الشيخ محمد عبده من الجزائر إلى مصر :

فَهْىَ تَسْرِي كأنّها دعوةُ المُضْـ طَرِّ فى مَسْبَحِ الدُّعاء المُجابِ

وقال شاعر قديم فى لحية كثيفة :

لو أنّها دُونَ السّماء غمامةٌ ضاقتْ مَسَالكُ دَعوةِ المظلومِ

وقال من خمرياته :

خمرةٌ قيل إنّهم عصروها مِن خُدودِ الملاحِ فى يوم عُرْسِ

ويقول أبو تمام :

ورْدِيّةٌ يَجْتَنُبُها شادِنٌ كأنّها من خدّه تُعْصَرُ

وقال ديك الجن :

معتّقةٌ من كفِّ ظبيٍ كأنما تناولها من خدّه فأدارَها

ومما قيل فى المعنى لشاعر قديم :

أقول له ، وقد حيّا بكأس ... لها من مِسْكِ ريقته ختامُ
أمِنْ خَدَّيْكَ تُعْصَرُ ؟ قال : كلّا ... متى عُصِرَتْ مِنَ الوردِ المدامُ ؟

قال من قصيدته (غادة اليابان) :

هكذا الميكادُ قد علّمَنا ... أن نرى الاوطانَ أمّاً وأبا
مَلِكٌ يَكفيكَ منه أنّهُ ... أنهضَ الشرقَ ، فهزّ المغربا

وقال ابن هانىء فى المعتمد على الله :

مَلِكٌ يكفيكَ منه أنّه ... وَجدَ الدُّنيا ، فأعطى ما وَجدْ

كلمة الختام

للنقد الفنى الصحيح سُنَنٌ صمّاء ، وأحكام مُستبدّة ، أوّلُ واقعٍ تحت سلطانها القاهر شخصُ الناقد وأدبُه ، وفكرُه وارادتُه ، فهو أسير هذا السلطان الذى يتحكّم بكلّ قوّته فى كلّ نفس قويّة الشعور بواجب الامانة ، شديدة الايمان بحق النقد النزيه ، وقداسة العدل الادبى ، وليس لك فى هذه القضية من مرشد أمين كنفسك ، فانت حين تقرأ لاحد النُّقّاد شيئاً لا تملك الاّ ان تضع الناقد منذ الكلمة الاولى فى المحلّ الاول من مكان النظر ، وموضع التأمل ، فهو يتلقى الحكم فى مَساقط النّظرات ، ومواقع الفكر والخواطر التى تستولى من جهتك على ما أثبت فى كتابه من وُجوه النقد وأساليبه ، وصوره وأوضاعه ، وليس للمنقود من هذا الحكم الاّ أثرٌ يخلصُ اليه من وراء الناقد كما يخلص اثر الكتابة من الصحيفة العليا إلى التى تحتها بفعل (الورقة السارقة) . ومُجمل القول فى النقد انه مُدْيَةٌ من العلم والذوق ، فى نِصابٍ من العدل والامانة .

أعلمُ هذا حقّ العلم ، وأُحِبُّ أن يكون غيرى من أدبائنا وكتّابنا على علمٍ صادق به ، وما أريد أن أعيب أحداً ، ولكنّى أوثِرُ أن يكون لنا نقاد مُدرّبون أصحّاء العقول والاقلام ، وأُهِيبُ بالذين لا يملكون هذه الأداة أن يراعوا حرمة الأدب ، وأن يكون لهم من نفوسهم زاجرٌ عن الاغارة على حرمه المقدس عابثين مُعربدين ، ولقد جهدتُ طولَ حياتى ألاّ أجعل لهذه المُدية الجارحة سبيلا إلى

يدى ، فلعلّى لا أراها وقد وُضِعتْ فيها مرة أخرى ، وعسى ألاّ أكون قد جرحت نفسى بما كتبته عن الصديق حافظ ، وما أدّعى أنى وفّيتُ النقد حقّه ، فقد نجاوزت عن كثير ممّا يقع فى هذا الباب ويدخل تحت حكمه .

وبعد ، فليس بمنصف من يظن ان هذه الأخطاء وما اليها فى شعر حافظ مما يجرح أدبه ، ويضع من مقامه وقدره ، فقد وقع لكثيرين من فحول الشعراء ، ومنهم : أبو تمام ، والبحترى ، ومسلم بن الوليد ، والمتنبى ، وابن هانى ، وابن الرومى ، مثل ما وقع له من هذه الهنات ، فما غضّ من أقدارهم ، ولا زحزحهم عن مراتبهم .

والشاعر اذا كثرت محفوظاته ، ازدحمت الصوّر اللفظية والمعنوية فى ذهنه فاختلط بعضها ببعض اختلاطاً يجعل الاحتراس من أشقّ الامور وأصعبها ، فقد يقع المعنى ، أو الشطر من البيت ، او البيت كلّه ، من هذه المحفوظات فى شعره ، وهو يظنّه من وحى شاعريته ، وفيض قريحته ، وقد يتبيّن ذلك ويعرفه بعد حين ، وهذا ما نقوله عن ذلك القسم فى شعر حافظ ، فأما الاخطاء اللغوية فمنشأ الكثير منها شيوع هذا النوع من الخطأ فى الصحف والمجلات ، وفى الكتب التى لا سلطان لأدب اللغة عليها .

وقد كان من شاعرنا الكبير أن نظم قصيدة رنانة فى (ذكرى شكسبير) قال فى مطلعها :

يُحَيّيك من أرض الكنانة شاعرٌ شَغُوفٌ بذكرى العبقريّين مُغْرَمُ

وحدث أن لقيته بعد نشرها فقال لى : أقرأت قصيدتى فى شكسبير ؟ قلت : نعم ، وابتسمت . فضحك رحمه الله وقال : وماذا نصنع يا أخى وقد ابتلانا الله بلغة الصحف ؟ لقد أُغرم كتّابها بكلمة (شغوف) فهى لا تفارق أقلامهم ، ولا تنجلى عن شفاهنا ، والصواب (مشغوف) كما تعلم ، لقد جعلت مكانها كلمة (ولوع) وانتهى الامر .

رحمك الله ياحافظ وأحسن اليك !

احمد محرم